

Critical terminology controversy A reading of the issue of postcolonial discourse

Prof .Dr. Wesam Husain jasem al-oubady

Imam Al-Kadhim College/Babylon

E-mail: wissam.hussein@iku.edu.iq

Abstract:

Some critical terminologies raise confusion in terms of reception. This confusion is attributed to the intellectual circumstances that lead to the emergence of that term. The terminology itself is merely a manifestation of the critical mind's intellectual transformation, which causes the terminology to expand its meaning to be collective. It includes what is allowed to be and prevents other terms from entering it. Delving into literature and searching for the controversy of terminology usually arises from the nature of literary language based on intense metaphor as well as the arts of rhetoric that characterise literary discourse. Therefore, I will stop at the term (postcolonialism) to follow up on its semantic control, whether that control is through linguistic follow-up of the term or through following the most prominent critics and thinkers who have added to the term something that approaches the boundaries of the material on which the term works. So, ((The term will be qualified to include whatever meaning it is intended to comprehend, not only in its present but even in the future of its development, foreseeable and hypothesised, and without the confusion and turmoil caused by differences in translation in particular)).¹ Then I go on to accept the term in Arabic and observe the reception of it, whether positive or negative, on the basis of the importance of that term critically, which raises concerns and accountability in the overall intellectual movement. May Allah grant success.

¹Introductions to critical terminology, Dr. Najm Abdullah Kazem, Dar Al-Ma'moun for Translation and Publishing, Baghdad, 2013: 37.

Key words: Colonialism , Discourse , Modern literary criticism.

جدل المصطلح النقدي قراءة في إشكالية الخطاب ما بعد الكولونيالي

أ.د. وسام حسين جاسم العبيدي

كلية الإمام الكاظم (ع) / بابل

E-mail: wissam.hussein@iku.edu.iq

الملخص:

تثير بعض المصطلحات النقدية التباساً من حيث التلقي، يعود ذلك الالتباس إلى الظروف الفكرية في نشأة ذلك المصطلح، إذ المصطلح بحد ذاته ليس إلا علامة على تحوّل فكري يتمخضها العقل النقدي، فيجترح ذلك المصطلح؛ ليتسع دلالاته، ومن ثمّ يكون إهاباً يُدخل ما يسمح به، ويحول دون دخول مفاهيم أخرى إليه، ولعلّ الخوض في الأدب والبحث فيه عن إشكالية المصطلح، تنشأ عادةً من طبيعة اللغة الأدبية القائمة على المجاز المكثف فضلاً عن أفانين البلاغة التي يمتاز الخطاب الأدبيّ بها.

ولذا ساقف عند مصطلح (ما بعد الكولونيالية) لمتابعة ضبطه دلاليّاً، سواء أكان ذلك الضبط من قبيل المتابعة اللغوية للمصطلح، أم من خلال متابعة أبرز النقاد والمفكرين الذين أضفوا إلى المصطلح ما يقترب من تخوم المادة التي يشتغل المصطلح على وفقها، ل((يكون المصطلح مؤهلاً لاستيعاب ما يُراد له أن يستوعبه من المدلول، لا في حاضره فحسب، بل حتى في مستقبل تطوّره، المنظور والمفترض، وبدون التشويش والاضطراب اللذين يسببهما الاختلاف في الترجمة بشكلٍ خاص))^١ ومن ثمّ أنطلق إلى تقبّل المصطلح عربياً؛ وملاحظة ذلك التلقي للمصطلح سواء أكان تقبّلاً إيجابياً أم سلبياً، انطلاقاً من أهمية المصطلح النقدي الذي يثير غبار القلق والمساءلة في مجمل الحراك الفكري. ومن الله التوفيق.

الكلمات المفتاحية : الكولونيالية - الخطاب - النقد الأدبي الحديث.

المقدمة:

يشوب الحديث عن المصطلح النقدي كثيرٌ من الإشكاليات المعرفية التي تختلف باختلاف منطلقاتها الفلسفية أو الثقافية، ولعل هذا ما نلمسه عند بداية الخوض في كل ميدان علمٍ تتصدّره جملةٌ من المصطلحات، فكيف الحال إذا كان ذلك العلم مبدوءاً بمصطلح بحاجة إلى إضاءةٍ تعريفيةٍ تتيح للقارئ من خلالها الجوسُ في رحاب ذلك العلم بعدها – أي المصطلح – مفتاح بؤابة ذلك العلم؟

ولا يخفى مقدار الإثارة والغموض التي تلفّ مصطلح (ما بعد الكولونيالية) في الدراسات الثقافية الرصينة، حتى أنّ (أنيا لومبا) تُشير في مقدمة كتابها إلى مقولة (رسل جاكوبي) فيما يخص المصطلح الذي يراه بأنه آخر مصطلح يُبهر العقل الأكاديمي^٢، ذلك الغموض الذي ابتدأ من تعريف (الاستعمار) ومن ثمّ أضيف إلى ذلك معنى الـ(ما بعد) ما جعل بعض المتحمسين لها لا يعرفون ماهيّتها، ويُضيف: "أن كثيراً من النظرية يُكتب بطريقة مشوّشة موسومة بالصراعات ما بين النّقّاد الذين يتّهمون بعضهم بعضاً بالاشتراك مع البنى الفكرية الاستعمارية، ومع أنّ أهدافها المعلنة هي السماح لأصوات الشعوب التي كانت مستعمرة ذات مرة وسلاطاتها أن تسمع، إلا أنها في الحقيقة تغلق أصواتها وأي مكان مشروع يستطيع النقّاد أن يتكلموا من خلاله"^٣. ومثل هذا القول يُعرب عن حقيقة أزمة تحديد هذا المصطلح الذي لم يكن النقاش الأكاديمي طرفاً وحيداً في إثارته، بل اشتركت جهات أخر تنتمي لحقول اجتماعية وسياسية وثقافية، ناهيك عن الصعوبة التي اتّسمت بها تلك الدراسات والمقالات، لاسيّما تلك التي اشتغلت على الفصل في تحديد معالم المصطلح وفرزه عن اشتغالات مصطلحات أخرى، فكان لمُنقّدي هذه الدراسات أن يُشخصوا صعوبة هذا الحقل بكونه "يتقاطع مع حقل النظرية النقدية أو الأدبية عموماً، الذي يُعتبر أيضاً كسابقه مليئاً باللغة الاصطلاحية، ومُربكاً وبعيداً عن الواقع اليوميّ المُعاش"^٤. وبهذا كان للباحث أن يقف من هذه الدوامة المعرفية في تسليط الضوء على بعض تلك المقولات، وهي محاولة لفضّ اشتباك مرجعيات المصطلح وإرسائه على برّ النقد.

المحور الأول: الدلالات اللغوية لمصطلح (الكولونيالية)

وردت تعريفات كثيرة للكولونيالية - أو "الكليانية" بحسب تعريب بعض المترجمين^٥ - أو "الكولونيالية" بحسب آخرين^٦، للكلمة الانجليزية Colonialism - وقبل الوقوف على اللفظ اصطلاحاً نُلفت أنها جاءت من الاشتقاقات الآتية:

١ - Colonel = زعيم، كولونيل.

٢ - Colonial = مستعمري أي متعلق بمستعمرة أو مستعمرات، ساكن مستعمرة.

٣ - Colonist = المستعمري: ساكن مستعمرة، المعمر: المشترك في إنشاء مستعمرة.

٤ - Colonize = يستعمر ينزل في مستعمرة، يُنشئ مستعمرة أو يُقيم فيها.

٥ - Colony = مستعمرة جالية.

أمّا المصطلح: Colonialism فيعني - بصفة عامة - الاستعمارية، وهو مفهوم يُشير - بحسب رؤية الدكتور عبد الوهاب المسيري - إلى "استعمال دولة حق السيادة على إقليم خارج حدود أراضيها، فيفقد بذلك كيانه الخالص وشخصيته الدولية، وتتبع بذلك السيطرة على كافة شؤونها، والحصول على كلّ المزايا الاقتصادية التي تطمع فيها الدولة المستعمرة، بشكلٍ مُجحفٍ للإقليم الواقع تحت سيطرتها"^٧.

وقد يُساء فهم مصطلح (ما بعد الكولونيالية) حين يتمّ تعريفه على نحوٍ ضيقٍ للغاية بجعله محصوراً بالمُدّة الزمنية التي تمّ من خلالها السيطرة على رقعة من البلاد، في حين أنّ دلالة المفهوم تشير "إلى الفترة الزمنية التي أعقبت زوال الاستعمار، أو الفترة التي أعقبت الاستقلال السياسي الذي تتحرر دولة ما بموجبه من حكم ما وتستبدله بحكومةٍ أخرى"^٨.

ومن الطبيعي أن يكون لاشتقاق اللفظ، والتفريع عليه أسباب كان لها في وضعه بهذه الصيغة، فلو جئنا إلى ما يُقاربها مثل المفردة (color or colour) لنجد أنّ من معانيها في المعجم - المورد القريب مثلاً - الآتي: "لون، مظهر خارجي، حُجّة، ذريعة حيوية، رأي، وجهة نظر، نوع، راية القوات المسلحة، صباغ، صبغ يلون، يصبغ، يُشوّه، يُحرّف، يحمّرُ خجلاً" وهذه المعاني مما قام على أكثرها مفهوم خطاب النقد الأدبي ما بعد الكولونيالي - بالمعنى الاستعماري - فاللون كان سبباً في تسيد طائفة من الشعوب القويّة على حساب طائفةٍ أخرى، ومنها تفرّعت أزمات سياسية ومشاكل عرقية قائمة إلى يومنا هذا، بين جماعات البيض والسود (Colored = ذو لون معيّن ملون، من غير العرق الأبيض، وبخاصّة: زنجي) أو كما يُسمّى بالدماء النقيّة، والدماء غير النقيّة، وهذا ما شكّل فيما بعد أساس أزمة الهوية والمواطنة.

و(المظهر الخارجي) مما له علاقة باللون بوصفه - أي المظهر - دلالة سيميائية تصطبغ بلونٍ يميّزها بوصفها آخر تميّز عن الذات، لاسيّما إن كان المظهر يمثّل كل علامات الإقصاء التي تمّ التوافق عليها من قبل السلطة التي تملك زمام المعرفة، كذلك تمثّل الذريعة، أو الرأي أو وجهة النظر، أو النوع،

أسباب بموجبها تُسوّغ البواعث الكولونيالية من حيث السيطرة على الآخرين من جهة أنهم - أي الآخرين - ليسوا قادرين على إدارة أمورهم، فهم بحاجة إلى من يُدير شؤونهم ويرعى مصالحهم، وبهذا تكون الذريعة باعاً على استغلال الآخرين وإلغاء وجهات نظرهم فيما يريدونه أو يطمحون إليه. الأمر الذي شكّل باعاً قوياً على قيام الكولونيالية الغربية بحركتها الاستعمارية للشعوب الأخرى من دول العالم الثالث - بحسب التصنيف الجائر والمعبّر في الوقت نفسه عن نزعة إقصائية إلى أبعد الحدود - تحت ذرائع وشعارات تُخفي وراءها مطامعها التوسّعية، ولعلّ (راية القوات المسلّحة) المذكورة ضمن دلالات مفردة (color) تعكس مدى القوّة التي يُظهرها الاستعمار في تسلّطه على الشعوب، إلى غير ذلك من المعاني المُبطّنة التي يمكن للمتلأل أن يقف عندها، أمّا المدلول الآخر (صباغ، صَبغ يَلَوْن، يُشَوّه، يُحَرِّف، يحمرّ خجلاً) فهي مما لها علاقة باللون، ولكن من جهة أخرى ترتبط بالمزايا التي يُضيفها اللون على الشيء، وإخفائه اللون الطبيعي له، وهذا ممّا له علاقة بمفهوم الدجل الذي يُمارسه المستعمر لتغطية مآربه التوسّعية، وإظهار اللون - المتمثل بالرأي أو العمل - المقبول من وجهة الآخر (المُستعمر) لغرض التمويه على مآربه الخبيثة، سعياً منه لتأخير الحركات المناهضة له في تلك البلاد المُستعمرة، وهذا مما لا يحتاج فيه إلى إثبات بالدليل؛ لظهوره.

أما في لغتنا العربية، فقد ورد بغير هذا المدلول السلبي الذي كان عليه المفهوم فيما أُشيع له من فهم متداول في حياتنا المعاصرة، فقد ورد ذكر الفعل (استعمر) في القرآن الكريم في سورة هود على لسان النبيّ صالح (A) يُخاطب قومه، في قوله تعالى: ((قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ))^٩. وفي بيان معنى الفعل (استعمر) يقول الطبري (ت: ٣١٠ هـ): " (واستعمركم فيها)، يقول: وجعلكم عمّاراً فيها، فكان المعنى فيه: أسكنكم فيها أيام حياتكم. من قولهم: "أعمر فلاناً فلاناً داره"، و "هي له عمري"^{١٠}، ولا تختلف سائر التفاسير عن هذه المعاني الإيجابية التي بيّناها لدلالة الفعل (استعمر).

ومن التسميات الأخرى التي تسمّى بها التيار ما بعد الكولونيالي هي (الإمبريالية) أخذاً من الكلمة الانجليزية (Imperialism) وتعني "النظام أو الحكم الإمبراطوري، الامبريالية: الاستعمار" وبحسب رؤية المفكر (علي شريعتي) يرى أنها "عبارة عن مؤسسة سياسية واحدة حيث أدغمت في هذه المؤسسة أمم ودول مختلفة، أمّا فرق الإمبراطورية مع الدولة هو أنّ الدولة هي حكمٌ وسيرةٌ مجموعة معيّنة من أمّة واحدة، أو بلدٍ مُعيّن واحد، أمّا الإمبراطورية فهي عبارة عن منظمة سياسية تُسيطر وتحكم عدداً من البلدان، لذلك فإنّ الإسلام هو عبارة عن إمبراطورية والحكومة الإسلامية يُعبّرون عنها بالحكومة الإمبراطورية"^{١١}، فالإسلام - بحسب هذه الرؤية - لكونه ديناً عالمياً يتعدّى الحدود العرقية والقومية، يمتلك حالة إمبريالية، بخلاف الدين اليهودي الذي يخصّ بني إسرائيل وحدهم^{١٢}.

وما أُشير إليه يُختصُّ بالوجهة الدينية، أما الاستعمار القائم على استغلال ثروات الشعوب والسيطرة على شؤونها كافة، فهو قائمٌ على الجانب العسكري السياسي، والجانب الاقتصادي. وقد ميّز شريعتي بين (الاستعمار) و(الامبريالية) بوصف الأول يستمدُّ معناه من الثاني؛ لأنه شعارٌ أوجدته الإمبريالية، ينشُد - ظاهراً - الإصلاح، والتعمير؛ ولذا سُمِّي استعماراً لأنه يدّعي قيامه بالعمران في البلاد التي يحتلّها، وجلب الحضارة من الإمبراطورية (الامبريالية) للمناطق المتخلفة^{١٣}. أو هي بحسب - دافيد آرنولد - "أيديولوجية ذات تركيب كان لها تعبيرات فكرية وثقافية وتقنية واسعة الانتشار في عهود سيادة أوروبا على العالم"^{١٤}. وفي قواميس مصطلحات المفاهيم النقدية، قد لا نجد ما يختلف طرحه عما ذكره قاموس اكسفورد بأن كلمة (Colonialism) تعني ممارسة يتم من خلالها اكتساب السيطرة على بلد آخر باحتلالها عبر المستعمرين أو المستوطنين واستغلالها اقتصادياً، بينما تُعرّف كلمة (Colonization) بأنها عملية تأسيس مستعمرة من خلال الاستيلاء على أراضي الآخر، وبهذا لا يخرج كلا المصطلحين عن استثمارهما بعدي المكان والفعل الاقتصادي المتعاقد مع الممارس (الفاعل) أي الإنسان. ويُضاف كذلك إلى المسوغ الاقتصادي مسوغ آخر يتمثل بأقدمية الاستقرار، ومدته في مكان ما وهذا مما يعد معياراً لمقبولية الاستعمار عند الشعوب^{١٥}.

وبحسب اطلاع الباحث لم يجد غير الدكتور مجيد الماشطة في اصطلاحه على هذا التيار ب(النقدي البعدي استيطاني Postcolonial) محدداً اتجاهه بأنه "نقد المستوطنات السابقة لانكلترا وفرنسا وإسبانيا وغيرها من الدول الأوروبية، متمثلة ببلدان العالم الثالث في آسيا وأفريقيا وجزر الكاريبي وأمريكا الجنوبية"^{١٦}. ويلاحظ أنّ مصطلح الكولونيالية تُضاف له البادئة/ اللازمة (ما بعد) في كثيرٍ من الأحيان، الأمر الذي تنبّه له بعض نقّاد الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي مثل (ليلى غاندي) ففي كتابها (نظرية ما بعد الكولونيالية) تقع على عدد من الإشكاليات التي ميّزت الخطاب منها الصعوبة، معللة سببها بافتقار هذا الخطاب إلى لحظة النشوء والتكوّن والتماسك، حيث ربطت وقارنت الباحثة بينه وبين عدد من التيارات منها: ما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية، والماركسية، والتي تعد تيارات مُنجزة ومستقرّة، في حين أنّ خطاب ما بعد الكولونيالية، ما زال قابلاً لتعدد المقولات والطرح، ومن هنا فقد انشغلت معظم الدراسات في مناقشة العلاقة بين المصطلح والدلالة الزمنية التي تتطوي عليها (ما) السابقة لكلمة (الكولونيالية) فأغلب الدراسات تُسهب في فصم العلاقة بين مدلول (ما) التي يتبادر إلى الذهن مباشرة ومبدئياً أنها معنيّة بالفترة التي تلت الاستعمار، في حين أنّ الكثيرين يرون أنّ (ما) هي دالة استمرارية تظل ما قبل الاستعمار إلى ما تلاه^{١٧}. ونقف عند (هومي بابا) بمنظوره الفلسفي لهذا المصطلح - ما بعد - مستكشفاً "ضرباً من الإحساس بفقدان الاتجاه أو اضطراب الوجهة: حركة استكشاف قلقة يلتقطها على أفضل وجه ذلك الفصل الذي يقيمه الفرنسيون بين الكلمتين هنا وهناك، في الأنحاء جميعاً، قريب وبعيد، خلف وقُدّام"^{١٨}.

وهنا يُطرح السؤال: هل هناك فرق في مدلول المصطلح في حال إضافة البادئة (ما بعد) أو لا يوجد فرق؟ سوى أنه من عدم التفات النقاد إليه، أو من قبيل شيوع استعمال هذه البادئة في كثير من تسميات تيارات ما بعد الحداثة... وقد التفت بعض الدارسين إلى ما تثيره البادئة (ما بعد Post) من مخاطرة كبيرة؛ لأنها غدت تقترن بكل مفهوم أو حالة نظرية مثل: ما بعد الحداثة، وما بعد النسوية، وما بعد البنيوية، وما بعد الصناعية، إلا أنها على الرغم من تشابه هذه المصطلحات مع مصطلحنا في هذه الدراسة - أي: ما بعد الكولونيالية- فإن هذه البادئة أكثر دلالة على الموضوع الذي يُحيل إليه^{١٩}. ويرأي الباحث أن لهذا السؤال وجهين من الجواب هما:

الأول: أن تسمية الـ(ما بعد) جاءت لكونه من التيارات النقدية التي ظهرت بعد مرحلة تفويض السلطة المركزية للنص، والإعلان عن (موت النص) بديلاً عن (موت المؤلف) أعني بذلك مرحلة المدّ البنيوي بانتهاء حقبة الخمسينات والستينات من القرن العشرين في النقد وما سبقه ورافقه من تيارات نقدية متقاربة في الغايات، فكان أن تسمت تلك التيارات من قبل بعض النقاد بـ(ما قبل الحداثة) وكان للتيارات النقدية التي ظهرت بعد ذلك - لاسيما بعد إعلان التفكيك منهجاً أو استراتيجية نقدية من جاك دريدا سنة ١٩٦٦ في جامعة (جون هوبكنز) أن تسمت بتيارات "ما بعد الحداثة Post- Modernism" - فكان التفكيك، والتأويل، والقراءة والتلقي مُتسيّداً ساحة النقد حتى أواخر سبعينات القرن المنصرم. أو أنها سُميت بـ(ما بعد) على وفق تقسيم يرى أن كل ما ذكرناه الآن من تيارات واتجاهات نقدية تتضوي تحت خيمة الـ(ما قبل) أما المناهج الجديدة التي نمت في أواخر السبعينات، وظهرت منذ بداية الثمانينات، فهي التي انضوت تحت خيمة النقد الثقافي؛ لكون الأخير ظهر بوصفه ردّة فعل للفكر النقدي الغربي ضدّ فوضى استراتيجية التفكيك بصفة خاصة، وضدّ التقيد بالنصوص وما تشي إليه من جماليات داخل النسيج النصّي لا تتجاوزه، وقد غطّت هذه الخيمة اتجاهات نقدية عدّة، منها: الماركسية الجديدة، والمادية الثقافية، والتاريخية الجديدة/التاريخانية، وما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي^{٢٠}.

ويمكن القول: إن هذا التقسيم ليس نهائياً بقدر ما يُعبّر عن حيرة كثير من النقاد في تصنيف هذه الاتجاهات التي تناذرت فيما بينها معرفياً، فالخطوط الفاصلة بين تلك الاتجاهات، بين الماركسية الجديدة والمادية الثقافية، مثلاً، بين التاريخية الجديدة والنقد الثقافي، بل بين المادية الثقافية والنقد الثقافي، وبين الماركسية الجديدة والماركسية التقليدية، وبين التاريخية الجديدة والنقد التاريخي، تلك الخطوط تتداخل فيما بينها أكثر مما تتباعد لتؤكد... الإحساس بالتيه النقدي^{٢١}. وبعض النقاد يعدّون هذه (الما بعديات) مجرد تعليقات ناشئة عن طبيعة العصر الحديث المتحولة التي لا تستقرّ على حال، وبعضهم الآخر يعدّها نوعاً من الانتفاض على ما استقرّ في الفكر النقدي الذي أصبح يدور على نفسه، ويكرّر ذاته بحيث لم يعد يستطيع أن يُصنّف إلى التفكير النقدي الكثير^{٢٢}.

الثاني: إن إضافة الـ(ما بعد) في بداية مصطلح (الكولونيالية) قد يُنظر إليها من زاوية أخرى مختلفة - وإن كان ذلك الاختلاف في تفاصيل المصطلح لا في جوهره- تعبّر عن وجهة نظر متعارضة فيما يتّصل بقراءة التاريخ، فيرى - عبرها- أنّ هناك فرقاً بين (الخطاب الاستعماري) وبين (النظرية ما بعد الاستعمارية)، من حيث أنّ الأول يُشير إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية من نتائج يُعبّر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم المستعمرة، على أساس أنّ ذلك الإنتاج يُشكّل في مجمله خطاباً مُتداخلاً بالمعنى الذي استعمله (ميشال فوكو) لمصطلح (خطاب) ويُشير الثاني إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من فرضية أنّ الاستعمار التقليدي قد انتهى، وأنّ ما حلّ الآن هو مرحلة ما بعد الإمبريالية (الكولونيالية) خالقةً ظروفًا تختلف عن سابقتها، ممّا يستدعي تحليلاً لخطاباتها من نوع معيّن^{٢٣}، فقد نأت الدول الاستعمارية عن ذلك الاحتلال التقليدي الذي كان سائداً في القرون السابقة، من إنزال الجيوش، وإقامة الثكنات العسكرية في البلد المستعمر، إلى ضربٍ جديد من الاحتلال يتمثّل بالهيمنة الاقتصادية عبر (الانغلاق المؤسّساتي)^{٢٤} الذي مثّل سمةً من سمات ما بعد الحداثة، وبمقتضاه تتجرف الدول النامية بمديونية واسعة؛ نتيجة العروض المقدّمة من قِبَل صندوق النقد الدولي، فتكون مثل هذه الدول خاضعةً بأي شكل من أشكال الخضوع للدول القوية المستعمرة، مستعدةً لإجراء أيّ نشاطٍ يستثمر ثرواتها؛ لأجل التخفيف من الديون المتراكمة عليها. وهذا - برأي الباحث- أشدُّ وطأً من سابقه (الاستعمار القديم)؛ لكونه بعيد الأثر، والغايات، ويجدر بنا أن نشير إلى تشخيص الدكتور عبد الوهاب المسيري هذه المرحلة المسماة- دجلاً - بـ(النظام العالمي الجديد) تجسيداً لعصر ما بعد الكولونيالية: "فهذا هو عصر استغلال الموارد الطبيعية والبشرية على المستوى العالمي بدون مواجهات عسكرية، ومن خلال تجنيد النخب المحليّة الحاكمة لتنفيذ مخطّطات الدول الغربية... وبدلاً من استعمار الشعوب، يتمّ أمركتها وكوكتلها (نسبة إلى الكوكا كولا) وتحل الكوكاكولانية محلّ الكولونيالية..."^{٢٥}.

ويُتفق مضمون ما ذكره المسيري في تحديد المنطقة الفاصلة بين الخطاب الكولونيالي وما بعده، بأنّ الأول يُحيل إلى جهود إدوارد سعيد ووصفه النظام والوسائل التي أدّت إلى أن يكون الخطاب أداة للقوة والهيمنة مشكّلاً نظرية الخطاب الكولونيالي، أما الخطاب الـ(ما بعد) كولونيالي فيتحدّد بتداعيات الاستعمار على الثقافة والمجتمع بعد الاستقلال، ومع ذلك هنالك ثمة روابط بين المفهومين يتعلّقان بوحدة مرجعياتهما الفكرية المتمثّلة بطروحات إدوارد سعيد، كذلك يرتبطان بعاملٍ زمنيّ يُحدّد أحدهما عن الآخر^{٢٦}.

وقد يصطلح بعضهم على مفهوم (ما بعد الكولونيالية) بمصطلح بديل هو (الكولونيالية الجديدة) (Neo Colonialism)، وهذا المصطلح صاغه (كوامي نكروما) الرئيس الأول لغانا المستقلّة وعنى به "أنّه على الرّغم من تحقيق دول مثل غانا الاستقلال النظري، فإنّ بقايا الكولونيالية السابقة والقوى الجديدة العظمى الصاعدة على المشهد العالمي مثل الولايات المتحدة الأمريكية ظلّت تلعب دوراً حاسماً في مصائر

هذه الدول عن طريق تثبيت الأسعار في الأسواق العالمية، والشركات المتعددة الجنسيات، والاتحادات الاحتكارية إضافة إلى تنويع من المؤسسات التعليمية والثقافية^{٢٧}. بل أكثر من ذلك حين نتلمس بوضوح الحضور الكولونيالي والاستيطاني الجاثم على أرض فلسطين منذ أكثر من خمسين سنة وما زال مستمرًا، يُضاف إلى ذلك ما شهدناه من عودة للاستعمار الجديد القديم كما في العراق، وبصورة غير مباشرة تمارس القوى الغربية على بعض الدول العربية التي تخضع منظومتها القيمية إلى التصورات والمصالح الغربية، وبهذا لا يمكن إخفاء آثار الاستعمار والقول بانتهاء مظاهره البغيضة، بل ما زالت تصوغ جغرافية بعض المناطق، علاوة على بعض الآثار السياسية والثقافية والاجتماعية التي ما زالت ماثلة على الأرض والفضاء الثقافي^{٢٨}.

أما الدراسات النقدية للخطاب الكولونيالي، فتُعرّف بأنها تلك التي "تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمراً، وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها، للكشف عن استراتيجيتها الخطابية"^{٢٩}، فهي لا تتشغل بجماليات النصوص الأدبية وغيرها، بمقدار ما تهتم بدراسة "علائق القوة بالسلطة المهيمنة، وعلاقة المعرفة بالمركزية السلطوية التي تسخر الأدوات ومنها الفكر لصالح مدّ كولونيالي بوجه ديمقراطي وأخلاقي رفيع"^{٣٠}، وتركز مثل هذه الدراسات على المواقف الاستعمارية والعنصرية في الثقافة الغربية في المرحلة التي أعقبت انتهاء الاستعمار من معظم البلاد التي كانت تحت هيمنته.

ويلخص الدكتور مجيد الماشطة طبيعة الخطاب النقدي لتيار النقد الأدبي ما بعد الكولونيالي بما يأتي^{٣١}:

١ - رفض الصيغة الأدبية للاستعمار الغربي الذي يُهمّش أدب المستعمرات الذي يضطرّ إلى الدفاع عن نفسه في سجلّ التاريخ الذي يكتبه الأوروبيون، ورفض أسلوب تهجين لغات هذه البلدان وحضارتها بشكل يُصوّر تقاليداً بدائية لا تشجع تنبئها.

٢ - توسيع القيم الأدبية الأوربيّة لتشمل القيم الأدبية لهذه البلدان.

٣ - احتضان أدباء هذه البلدان الذين يصوّرون بالإنكليزية معاناة بلدانهم وطموحاتها.

أما فيما يخصّ المدّة الزمنية التي أذنت بولادة خطاب النقد الأدبي ما بعد الكولونيالي، فهناك رأيان أولهما يفترض أنّ بداية المشروع النقدي لكشف ملابسات الخطاب الكولونيالي بدأ في عام ١٩٦١ حين صدر كتاب فانون (معدّبو الأرض Wretched of the Earth) ويمثّل هذا الكتاب تأسيساً لتحليل آثار الكولونيالية على الشعوب المستعمرة وثقافتها^{٣٢}. ولا تخفى أهمية الكتاب في كونه أثار اهتمام كل الذين يُفكرون في تحولات المجتمعات في النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصة في علاقات الهيمنة الجديدة التي فرضتها الدول الاستعمارية القديمة والمراكز الاقتصادية على البلدان التي لم تمنعها تصفية

الاستعمار لخياراتها من أن تبقى حاملةً وصماً في مخيال شعوبها أنها دولاً نامية أو دول العالم الثالث^{٣٣}، ناهيك عن الآثار الكبيرة التي أثارها الكتاب في جُلِّ الحركات الطلابية في أوروبا وأمريكا وحتى اليابان، كذلك الحركات المناهضة للتمييز العنصري ضد السود في أمريكا كانت تستلهم فكر فانون وترى أن كتابه (معذبو الأرض) مماثلاً للإنجيل^{٣٤}.

أما الرأي الآخر فيرى أن البداية الحقيقية لنقد الخطاب ما بعد الكولونيالي كان في أواخر السبعينات من القرن العشرين^{٣٥}، معلناً بظهور كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد الأمريكي الجنسي الفلسطيني الأصل، فضلاً عن ظهور جماعة أخرى من نقاد ما يُسمى بالـ(متروبول) الغربي متساندين في الاهتمام الثقافي إلى جانب التقارب المنهجي والفكري في إنتاج رؤى تمثل هذا التيار وتظهر أفكاره في مقالات وكتب ودراسات مبثوثة في أكثر من مجلة، وقد لا يختلف اثنان على أن إدوارد سعيد يمثل رائد تحليل الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي، إذ حلل في جملة من كتبه يتصدرها (الاستشراق) و(الثقافة والامبريالية) النسق المضمّر الذي تلتحم فيه القوة السياسية المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي، وينبغي التنويه أن لسعيد يعود الفضل في تحديد فضاء (ما بعد - الكولونيالية) في كتابه المهم (الاستشراق) حيث أصبح هذا المصطلح يُشير إلى حالة مشروطة معينة، وإلى الكتابات التي تنظر لهذه الحالة^{٣٦}، وكذلك الباحث (هومي بهابها) - أو كما يُكتب (هومي بابا) - الهندي الأصل، الأمريكي الجنسية، الذي انطلق في تحليله الخطاب الكولونيالي من وجهة التحليل النفسي، وركزت (جياتري سبيفاك) على الاهتمام بتوجّه وليس الانحصر ضمن دائرته^{٣٧}، ولعلّ دراستها عن (التابع) ثقافياً كانت أبرز أعمالها في هذا المضمار، في حين جاءت (تشاندراموهانتي) من ناحية المنهج النسوي، وكذلك الناقدة (أميلكار كابرال) و(نعوم شومسكي) و(سوينكا) الشاعر والروائي والمسرحي والناقد النيجيري، وغيرهم من النقاد ممن ألقى بحمولاته المعرفية وصّبّها في مضمار هذا الحقل الذي يُعيد النظر في مجمل العلاقات الاجتماعية والسياسية والأدبية بين الذات المستعمرة والآخر المستعمر جاعلاً تلك الدراسات مجالاً خصباً يكشف زيف تلك الخطابات ومن ثمّ يكشف ادّعاءاتها الفارغة عبر تلك الغلالة اللغوية الموظفة سلفاً لتمرير مصالح جهة على حساب جهة أخرى.

وسواءً أقلنا بترجيح رأي على آخر في تحديد البداية الفعلية لظهور التيار النقدي ما بعد الكولونيالي، فهو قد ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين بعد صراع العديد من الدول في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وغيرها من أجل الاستقلال من السيطرة الاستعمارية^{٣٨}.

وقد يوحي لنا هذا الاهتمام بدراسة مثل هكذا أبحاث من قِبَل هؤلاء النقاد الذين تنوّعت جنسياتهم واختلفت ألوانهم، أن اتّجاههم الفكري جاء بوصفه ردّة فعل لما يُعانونه - أو ما يعانیه مواطنو بلدانهم المستعمرة - من تهميش فكري وثقافي، أرادوا لفت انتباه دوائر الفكر الأكاديمي الغربي إليهم، بتسليطهم مجاهر النقد على آداب الغرب - بوصفه مستعمرًا - مُفكّكين دعاواهم بانتهاج الموضوعية والحياد

الأكاديمي، إلى عُقدِ رسبث في قرارة الفكر الغربي، أعلنت من شعوره بالمركزية، والفوقية، في قبال تعميق إشعار الآخرين - بوعيٍ منهم أم بلا وعي - بالدونية، وقد أسهم تضخم ذلك الشعور أن هناك كُتَّابًا "هاجروا من بلدانهم الأصلية لأسباب مختلفة، على رأسها الواقع الكولونيالي المفروض، دخلوا "المتروبول" الغربي مُحملين بثقافة بلدانهم الأصلية من جانب، ومن جانبٍ آخر، تعيّن عليهم أن يتعاطوا مع الظرف التاريخي والسياسي والثقافي والانثروبولوجي للمجتمع الجديد الذي دخلوه. أمام هذا الواقع، وفي غماره، أنتجوا كتابةً مُحَمَّلةً بثقافة بلدانهم الأصلية، ومفتحة، في الوقت ذاته ثقافة المركز. الأمر الذي أدى إلى خلخلة المركز الثقافي الغربي، وإرغامه على نزع صفة النقاء الثقافي الذي كان لا ينفك يُكرّسها عبر إقصاء الثقافات الأخرى والنظر إليها ترانثيًا، من موقع أنها الأدنى أو الأقل قيمة.. إلى ما هنالك، وقد اضطرت النظرية النقدية الغربية إلى قبول إدراج هذه النصوص ضمن خطابها الثقافي الخاص... لإضفاء طابعٍ كونيٍّ على هذه النظرية"^{٣٩}.

الخاتمة:

- ونحن نقف على أعتاب خاتمة هذا البحث، نحاول لملمة ما نثرناه من شتاتٍ مقولاتٍ ومفاهيمٍ توزعت رقعتها بين المتروبول الغربي وهوامش نائية من العالم الثالث أو ما دون، تمثل مقاومة الهيمنة الكولونيالية بالكتابة الأدبية والدراسات النقدية، فكان المحصول مما جنيناه كالاتي:
- إن مصطلح الكولونيالية أجده على الرغم من كونه مصطلحاً أجنبياً، لكنه الأولى في الظهور من مصطلح (الاستعمار) لكون الأخير يعبر عن حالة من العمران والتطور الذي يحققه المستعمر، وفي الواقع لا يترك الاستعمار (الغربي) سوى الدمار في الدول المستعمرة والتبعية له في كل شيء.
 - أخذ مدلول (الكولونيالية) أبعاده من خلال معانيه في اللغة التي أشرنا إليها، فهي بمجموعها تشير إلى مدلول الكلمة بحسب استعمالها وتوظيفها التداولي في أرض الواقع.
 - انطلاق وجهات النظر في رسم حدود المصطلح كانت أكثرها من دول العالم الثالث، ولكنها انطلقت في داخل المركز الغربي الممثل للاستعمار، وبهذا تكون وجهات النظر تلك رداً بالكتابة على فعل الهيمنة الاستعماري.
 - بصفة عامة وجدت العامل الزمني يمثل فاصلاً زمنياً ثابتاً لتحديد الفروق الدلالية بين مصطلح (الكولونيالية) و(ما بعد الكولونيالية).
 - لا يخفى الجهد الذي قدّمه إدوارد سعيد في إثارة النقاش في هذا الحقل بما يمثل إسهامه معرفية أضيفت إلى سائر حقول المعرفة الإنسانية.
 - كذلك لا يخفى تورط حقول معرفية متنوعة -ولاسيما المعارف الإنسانية- في صياغة مفهوم الخطاب الكولونيالي وما بعده. بما يجعله حقلاً أدبياً متميزاً بتلك الإضافات المتنوعة المرجعية، وبهذا تسهم في فك علاقات النص الذي يُنتجه المستعمر - بفتح الميم وكسرها- وتكشف البُعد الثقافي الذي يقف وراءه.
 - بالإمكان أن نوصف هذا الحقل المعرفي ضمن المناهج السياقية على الرغم من انطلاق أكثر نقاد هذا الاتجاه من كوة ما بعد الحداثة.

المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم.

- ١- أساطير بيضاء - كتابة التاريخ والغرب، روبرت يانج، ترجمة: أحمد محمود، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة - مصر، ٢٠٠٣م.
- ٢- الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، محمد سالم سعد الله (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٢م.
- ٣- آفاق الأدب المقارن العالمية في تصور الناقد إدوارد سعيد، د. حفاوي بعلي، مجلة عالم الفكر، ع٤، م٣٥، أبريل ٢٠٠٧م.
- ٤- إيديولوجيا هذه الأيام، فرانسوا برون، تعريب: عبد الكريم شوطا، (مقال).
- ٥- تاريخ الحضارة، د. علي شريعتي، ترجمة: د. حسين نصيري، مراجعة وتبويب: حسين علي شعيب، ط٢، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت - لبنان، د.ت.
- ٦- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٧- الحداثة وما بعد الحداثة، د. عبد الوهاب المسيري، ودفنحي التريكي، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م.
- ٨- الخروج من النيه - دراسة في سلطة النص، د. عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة (٢٩٨)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٣م.
- ٩- الخطاب التحرري ما بعد الكولونيالي في الرواية العالمية (في انتظار البرابرة اختيارا)، د. رفقة محمد دودين، مجلة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٤٢٦، س٣٥، ٢٠٠٦م.
- ١٠- الدراما ما بعد الكولونيالية - النظرية والممارسة، هيلين جيلبرت وجوان تومكينز، ترجمة: سامح فكري، مراجعة: سامي خشبة، أكاديمية الفنون المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ١١- دليل الناقد الأدبي، د.ميجان الرويلي، ود.سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٣، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م.
- ١٢- الرئيس والمخاتلة - خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر النظرية والتطبيق، د. رامي أبو شهاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، الأردن، ٢٠١٣م.
- ١٣- الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، تحرير: دافيد آرنولد، ترجمة: د.مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة (٢٣٦)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨م.
- ١٤- في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، أنيا لومبا، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، سورية- اللاذقية، ٢٠٠٧م.
- ١٥- لقاء مع الأديب والناقد فخري صالح، مجلة اتحاد العرب، دمشق، ع٤٢٥، س٣٥، ٢٠٠٦م: ١٦٨.

- ١٦-مدارس النقد الأدبي الغربي الحديث، د. مجيد الماشطة، وأمجد كاظم الركابي، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، دار الصادق الثقافية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٦م.
- ١٧- معذبو الأرض، فرانز فانون، تديم: ك.شولي، الجزائر، ٢٠٠٧م.
- ١٨-مقال عن التيار الكولونيالي، خضر الآغا، شبكة المعلومات.
- ١٩-مقدمات في المصطلح النقدي، د. نجم عبد الله كاظم، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ٢٠١٣م.
- موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي - القرن العشرون المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، تحرير: ك.نلوف، ك.نوريس، ج.أوزبورن، مراجعة وإشراف: رضوى عاشور، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة - مصر، ٢٠٠٥م
- ٢٠-موقع الثقافة، هومي.ك.بابا، ترجمة: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ٢١-نقد التمركز الغربي في قراءة ما بعد الكونيالية، د. عامر عبد زيد، (مقال).

٢٢Modern literary Theory: (edited by) Philip Ric and Ptricia Waugh, Arnold- London, 4th ed. 2001, p. 360. And: Emory University, Department of English, Introduction to Postcolonial Studies, <<http://postcolonialstudies.emory./Intro.html>>

الهوامش:

- ١- مقدمات في المصطلح النقدي، د. نجم عبد الله كاظم، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ٢٠١٣م: ٣٧ .
- ٢- في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية: ٧ .
- ٣- المصدر نفسه: ٧ .
- ٤- في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية: ٨ .
- ٥- ينظر: إيديولوجيا هذه الأيام، فرانسوا برون، تعريب: عبد الكريم شوطا، (مقال).
- ٦- ينظر: نقد التمرکز الغربي في قراءة ما بعد الكولونيالية، د. عامر عبد زيد، (مقال).
- ٧- الحداثة وما بعد الحداثة، د. عبد الوهاب المسيري: ٣٥٩ .
- ٨- الدراما ما بعد الكولونيالية - النظرية والممارسة، هيلين جيلبرت وجوان تومكينز: ٣ .
- ٩- سورة هود: ٦١ .
- ١٠- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: ١٥ / ٣٦٨ .
- ١١- تاريخ الحضارة، د. علي شريعتي: ٢ / ٧٢١ .
- ١٢- ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٧٢١ - ٧٢٢ .
- ١٣- ينظر: تاريخ الحضارة: ٢ / ٧٢٣ .
- ١٤- الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية: ٩ .
- ١٥- ينظر: الرئيس والمخاتلة - خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر النظرية والتطبيق: ٥٢ .
- ١٦- مدارس النقد الأدبي الغربي الحديث: ١٩٦ .
- ١٧- ينظر: الرئيس والمخاتلة: ٥٣ .
- ١٨- موقع الثقافة، هومي بابا: ٣٧ - ٣٨ .
- ١٩- ينظر: الدراما ما بعد الكولونيالية - في النظرية والممارسة: ٢ .
- * يشير الدكتور عبد العزيز حمودة بقوله: "ربما يكون الناقد الأمريكي المصري الأصل إيهاب حسن أول من استخدم المصطلح الجديد المراءوغ". الخروج من التيه: ٩٩ .
- ٢٠- ينظر: الخروج من التيه: ٣٥١ .
- ٢١- المصدر نفسه: ١٠١ .
- ٢٢- ينظر: لقاء مع الأديب والناقد فخري صالح، مجلة اتحاد العرب، دمشق، ع ٤٢٥، س ٣٥، ٢٠٠٦م: ١٦٨ .
- ٢٣- ينظر: دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي: ١٥٨ .
- ٢٤- ينظر: الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، محمد سالم سعد الله (أطروحة دكتوراه: ٣١٥ .
- ٢٥- الحداثة وما بعد الحداثة: ٥٥ .

- ٢٦ -نظرية ما بعد الكولونيالية، ليلي غاندي، جامعة كولومبيا، نيويورك، ١٩٩٨م: ١ . نقلًا عن: الرئيس والمخاتلة: ٥٢ .
- ٢٧- المصدر نفسه: ٦٠ .
- ٢٨- ينظر: الرئيس والمخاتلة - خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر النظرية والتطبيق، د. رامي أبو شهاب: ١٢٦ .
- ٢٩ -آفاق الأدب المقارن العالمية في تصور الناقد إدوارد سعيد، د. حفناوي بعلي، مجلة عالم الفكر، ع٤، م٣٥، أبريل ٢٠٠٧م: ١٠ .
- ٣٠- الخطاب التحرري ما بعد الكولونيالي في الرواية العالمية (في انتظار البرابرة اختياري)، د. رفقة محمد دودين، مجلة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع ٤٢٦، س ٣٥، ٢٠٠٦م: ٤٣ .
- ٣١ -مدارس النقد الأدبي الغربي الحديث: ١٩٦ .
- ٣٢ -ينظر: أساطير بيضاء - كتابة التاريخ والغرب، روبرت يانج: ٢٦٠ .
- ٣٣ -ينظر: معذبو الأرض، فرانز فانون، تديم: ك.شولي، الجزائر، ٢٠٠٧م: XX .
- ٣٤- المصدر نفسه: XXI .
- ٣٥- ينظر: موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي - القرن العشرون المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية: ٣٣٩ .
- 36 Modern literary Theory: (edited by) Philip Ric and Ptricia Waugh, Arnold- London, 4th ed. 2001, p. 360. And: Emory University, Department of English, Introduction to Postcolonial Studies, <<http://postcolonialstudies.emory.edu/Intro.html>>
- ٣٧- ينظر: دليل الناقد الأدبي: ١٥٨ - ١٥٩ .
- ٣٨- ينظر: مدارس النقد الأدبي الغربي الحديث: ١٩٨ .
- ٣٩- مقال عن التيار الكولونيالي، خضر الآغا، شبكة المعلومات.